فرعون وقومه

هذه قصيدة لسعادة استاذ الشعراء اسماعيل باشا صبري ، وهي من خير ما قيل في آثار مصر . وقد ضمّنها الشاعر نظريةً جديدة ، وهي ان هذه البنايات الفخيمة لم تتمّ الا على يد عمال كانوا يطلبون الاتقان الفني اكراماً للفن لا خوفاً ولا طمعاً . ولا يضارع جلال هذه الابيات وفخامتها الا جلال وفخامة تلك الآثار :

« لا القوم قومي ولا الاعوان اعواني اذا ونى يومَ تحصيلِ العلى واني
ولستُ — انْ لم تؤيدني فراعنةٌ منكم — بفرعونَ عالي العرشِ والشانِ
ولستُ جبارَ ذا الوادي اذا سلمتْ جبالهُ تلك من غاراتِ اعواني
لا تقربوا النيلَ ان لم تعملوا عملاً فماؤه العذبُ لم يُخلقْ لكسلانِ
ردوا المجرَّة كداً دونَ موردهِ او فاطلبوا غيره ريّاً لظمآنِ
وابنوا كما بنتِ الاجيال قبلكمو لا تتركوا بعدكم فخراً لانسانِ
امرُتكم فأطيعوا امرَ ربّكمو لا يُثنِ مستمعاً عن طاعةٍ ثاني
فالملكُ امرٌ وطاعات تسابقهُ جنباً لجنبٍ الى غاياتِ احسانِ
لا تتركوا مستحيلاً سيفي استحالته حتى يميطَ لكم عن وجهة امكانِ ..»

* * *

مقالةٌ قد هوتْ من عرش قائلها على مناكب ابطالٍ وشجعانِ
مادت لها الارض من ذعرٍ ودان لها ما في المقسَّم من صخرٍ وصوّانِ
لو غيرُ فرعونَ القاها على ملإٍ في غير مصر لعدّتْ حلمَ يقظانِ
لكنَّ فرعونَ ان نادى بها جبلاً لبّتْ حجارته سيفي قبضة الباني
وآزرتهُ جماهيرٌ تسيل بها بطاحُ وادٍ بماضي القوم ملآنِ

يبنون ما تقفُ الاجيالُ حائرةً امامهُ بين إعجابٍ وإذعانِ
من كل ما لم يلدْ فكرٌ ولا فُتحتْ على نظائره في الكون عينانِ
ويشبهون اذا طاروا الى عملٍ جنا تطير بامرٍ من سليمانِ
برًّا بذي الامرِ لا خوفاً ولا طمعاً لكنهم خُلقوا طلاَّبَ اتقانِ

* * *

اهرامهم تلك ـ حيّ الفنّ متخذاً من الصخور بروجاً فوق كيوانِ
قد مرّ دهرٌ عليها وهي ساخرةٌ بما يُضعضع من صرحٍ وايوانِ
لم يأخذِ الليل منها والنهار سوى ما يأخذ النمل من اركان ثهلانِ
كأنها — والعوادي في جوانبها صرعى ـ بناءُ شياطينٍ لشيطانِ
جاءتْ اليها وفودُ الارض قاطبةً تسعى اشتياقاً الى ما خلّد الفاني
فصغّرت كلَّ موجود ضخامتها وغضّ بنيانها من كل بنيانِ
وعادَ منكرُ فضل القوم معترفاً يثني على القوم في سرٍ واعلانِ
تلك الهياكل في الامصار شاهدةٌ بانهم اهلُ سبق اهلُ امعانِ
وإنّ فرعونَ في حولٍ ومقدرةٍ وقومَ فرعونَ في الاقدام كفؤانِ
اذا أقام عليهم شاهداً حجرٌ في هيكلٍ قامتِ الاخرى ببرهانِ
كأنما هي — والاقوام خاشعةٌ امامها ـ صحنٌ من عالمٍ ثانِ
تستقبل العينَ في اثنائها صورٌ فصيحة الرمز دارتْ حول جدرانِ
لو أنها أُعطيت صوتاً لكان له صدًى يروّع صمَّ الانس والجانِ

* * *

أين الأُلى سجلوا في الصخر سيرتهم وصغّروا كلَّ ذي ملكٍ وسلطانِ

بادوا وبادت على آثارهم دولٌ وأُدرجوا طيَّ اخبارٍ واكفانِ
وخلّفوا بعدَهم حرباً مخلدةً في الكون ما بين احجارٍ وازمانِ
وزُحزحوا عن بقايا مجدهم وسطا عليهمِ العلمُ ذاك الجاهلُ الجاني
ويلٌ له هتكَ الاستارَ مقتحماً جلالَ اكرمِ آثارٍ واعيانِ
للجهلُ ارجح منه في جهالته اذا هما وُزنا يوماً بميزانِ

اسماعيل صبري

آثار مصر

١ — هيكل انس الوجود

أيها المنتحي (باصوان) داراً كالثريا تريد ان تنقضا
اخلعِ النعلَ واخفضِ الطرف واخشع لا تحاول من آية الدهر غمضا
قفْ بتلك القصور في اليمِ غرقى ممسكاً بعضها من الدعر بعضا
كمذارى اخفينَ في الماء بيضاً سابحاتٍ به وابدين بيضا
مشرفات على الزوال وكانت مشرفاتٍ على الكواكب نهضا
شاب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون ما زال غضا
ربَّ نقشٍ كانما نفض الصا نعُ منه اليدين بالامس نفضا
ودهانٍ كلامعِ الزيت مرّت أعصرٌ بالسراج والزيتُ وضا
وخطوطٍ كأنها هدبُ ريمٍ حسنت صنعةً وطولاً وعرضا
وضحايا تكاد تمشي وترعى لو اصابت من قدرة الله نبضا